رواية

أم النور

عبير عيسى الماغوط

دار البسمة
للنشر الإلكتروني

أم النور

اسم الكتاب: أم النور

اسم الكاتب: عبير عيسى الماغوط

نـوع العمل: رواية

عدد الصفحات: 38

الرقم الدولي EBIN: 16-161-1-211116

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

محفوظة جميع الحقوق

دار بسـمة للنشـر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشـر، ولا تتحمّل أي مسـؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سـواء كَانَت إلكترونية أو بالتصـوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر. ©

أم النور

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

أم النور

في كلِّ مرَّةٍ أدخل إلى غرفتها، كانت تقصُّ لي قصَّـة أحد أبنائها، وتسترجع ذكرياتها معهم، تمسك بطرف ثوبي وأنا أهُمُّ بالاستئذان للذهاب إلى أشـغالي، فترمقني بعينين متوسِّـلتين: اجلسـي أمَّ فادي... ما يزال أمامك متَّسعٌ من الوقت.

أشير لها للساعة، وأنسحب، وبصوتٍ خَجِلٍ أقول لها: سأعود بعد الانتهاء من العمل، وتهزُّ رأسها مؤنِّبة: كالبارحة ها!!؟!

أبتسم لها وأخرج، ويبقى في مخيِّلتي صورة وجهها المتوسِّل لي بألَّا أغيب طويلًا...

أعود لها، فتنظر لي بفرح الظمآن لقطرة ماءٍ في صـــحراءَ قاحلة، تشعرني بالغرور لبرهة... فأقول لنفسي: إنَّ لقدومي هيبة، ثم ما ألبث أن أســـتفيق على هذا الواقع المؤلم، ولا تترك هي مجالًا للتفكير المطوَّل، فتشقُّ عباب الصمت بسردها عن عذاباتها في هذه الحياة، بداية عن زوجها أبي النور، والفقر الشـــديد الذي لازمهما طيلة حياته، التي لم تكن بالطويلة، فقد ترجَّل من قطار العمر في محطَّةٍ مبكِّرة، تاركًا لها شقاءً كبيرًا في تربية أطفالٍ صغار، عصـــافير قابعة في العش، فاتحةً أفواهها لقدوم الأمِّ حاملةً لها الطعام.

وتبدأ لي بالحديث عن ولدها مصطفى، رجل الدين الورِع.

كان يقطن في المدينة، وكان بيته محجًّا للناس، يأخذون منه علوم الدين والدنيا.

- رأيته اصـــطفاه الله من بين خلقه كلِّهم، وجهه نور، قمرٌ منيرٌ في تمامه.

كانت هذه الجملة تتكرَّر على مســـامعي كلَّما تحدَّثت عن ولدٍ من أولادها.

- حين كان يذهب إلى المدرسـة ويعود، كانت صـبايا الحيِّ كلُّهنَّ يشـــرن إليه؛ لجماله وحســـنه، وكان لا يبدي لهنَّ أيَّ اهتمام، فقد كان يعلم مقدار ما منحه الله له من حسنٍ وبهاء.

ومع الحســـــن حباه فكرًا متَّقدًا، وذكاءً حادًّا، اســـتطاع نيل شـــهاداته رغم انشـــغاله بالعمل، ولم يَثنه فقر الحال عن متابعة دراسته.

وفجأةً وهي تقصُّ لي سيرة ولدها مصطفى، تتغيَّر أسارير وجهها، وتكمل الحديث عنه: ظلَّ متميِّزًا حتى تعرف إلى بنت الـ....

لقد غيَّرت كلَّ حياته، سحرته ابنة اللَّعينة، لم يكن ولدي كذلك، كان مرضيًّا يا عين أمِّه...

لكنها غيَّرته... أصبح لا يهتمُّ لي، ولا لإخوته!

كان عونًا لنا قبل تعرُّفها إليه... أستند إليه بعد وفاة والده، نعم كان صغير السِّن، لكنَّ فعله كان أكبر من عمره، نتساعد معًا لتوفير مستلزمات البيت، تعرف إليها أثناء دراسته، وتعاهدا على الحبِّ طول العمر، ههه... ونسي عهده مع الله في مساعدتي لتربية إخوانه... نسي محبَّة أيٍّ كان سواها...

أنهى دراسته وذهب وإيَّاها للعمل في المدينة، تاركًا إرثًا ثقيلًا من العذاب والمرار، وحتى زيارته لنا كانت قليلةً جدًّا، ولو استطاع قطعها لفعل، فلا يصحُّ لرجل الدين أمام معارفه أن يكون قاطع رحم، وكان في كلِّ زيارةٍ يلقي لي فُتات المال الفائض عنه، مبعدًا نفسه عن مسؤوليَّة إخوته، وفي كلِّ زيارةٍ يبدو الامتعاض على

وجهه، ووجه زوجته، يتأفَّفان من كلِّ شـــيء! ودائمًا يردِّد على مسامعي: لماذا لا تطبخين طعامًا لائقًا؟ ويستغربان لنوعيَّة الطعام التي أطبخها، ولا تخجل زوجته وهي تدوِّر عينيها كســـاحرةٍ شمطاء، وتردف قائلةً بلهجة المتشـــفِّي الحاقد، وكأنَّ في حديثها دعاءً علي: إذا وفَّرت المال على حساب صحَّتك، فسيأتي يومٌ لن تستطيعي فيه الوقوف على رجليكِ؛ من قلَّة التغذية.

كانا يعتقدان أن ما يرســـلانه من مالٍ يكفيني لطهو اللُّحوم، والتلذُّذ بطعم الفاكهة، ههه... إنهما لا يدريان كيف نُمضـــي الأيَّام...

كرهتني نافلة (زوجة ابني مصـــطفى) من أوَّل ما تعرَّف إليها ولدي، فقد علمت أنني لا أرغب بزواجه المبكِّر؛ لأنني كنت أحسُّ بأنه بزواجه قد يتخلَّى عن بعض مســـؤوليَّاته تجاه عائلته الأولى... لم أكن أدري أنه سينسلخ كليًّا عنَّا!

وبعد زواجهما بدأ حمل العمل يزيد على ساقيّ، فينهكهما شيئًا فشيئًا، وأنا لا أعبأ بألم الليل فيهما، والخدر الدائم الذي أحسُّه بالأصابع، كانت هموم الحياة لديَّ أكبر بكثيرٍ من هذا الألم الموضعيِّ الذي أحسُّه.

ومرَّت الأيام، ومرت السنون، وكبر الصغار، وكبر معهم ألم ساقيّ، اللَّتين أصبحتا تتأوَّهان من ثقل جسدي، على الرغم من نحولي الشديد، إلى أن وصلت لحالتي التي ترينني عليها، فقد ظلَّ وضعهما يتدهور حتى رفعتا راية الاستسلام... وجزم كلُّ الأطباء الذين عدتهم بأنهما وصلتا لنهاية الخدمة، وأنْ لا أمل لي بالوقوف عليهما مرَّةً أخرى.

غمرتها بألم، ودمعها الساخن يبلِّل كتفي، وبركانٌ ثائرٌ في مخيِّلتي ينفث صورًا شتَّى...

تبتسم لي، تمسح كتفي بيدين قويَّتين، وتعود لتستطرد: زاد كرهها لي بعد مرور سنواتٍ على زواجها من ولدي دون أن تنجب له، وكنت دائمًا أرغب في أن يكون له خلف، لا أن يبقى وحيدًا في الحياة وينقطع ذكره، فصارحته في إحدى الزيارات بأن يتزوَّج مرَّةً ثانية؛ علَّ الله يرزقه الذرِّيَّة، وكان هذا الاقتراح الشعرة التي قصمت بيننا، فتبسَّمت لي، وكشَّرت عن أنيابها وهي تقول: حدَّثني مصطفى عمَّا قلت له، وأنك ترغبين في تزويجه، ههه... لقد طلبت ذلك منه مرارًا وتكرارًا؛ علَّه لا يضيع هذا النسل، ههه... لكنَّه أبى، وكان يقول لي إنَّ ظفُري عنده يساوي هذه الدنيا كلِّها... وتبتسم بلؤم...

كان لكرهها اليد الطولى في مسار العذاب في حياتي، وخاصَّةً بعد سقوطي فريسة المرض، وحاجتي لمن يساعدني، فقد كانت تخطِّط، وتدبِّر... وكلُّ أفراد أسرتي ينفِّذون مقترحاتها، لا لمحبَّتهم لها، بل لموافقة اقتراحاتها لظروف حياتهم.

فألزموني البقاء في المنزل وحيدة، ولكلِّ واحد منهم شـــهرٌ، يأتي به إلي، يعيلني فيه، ويرعى طلباتي دون أن يتأثَّر بيته بي!

أحسست بنفسي بعد هذا القرار المشين وكأنني كلبٌ مربوطٌ في بيته الصغير، يحضرون له الطعام والشراب... فلم تكن حاجتي لطعامٍ أسدُّ به جوعي، أو شرابٍ أطفئ به عطشي، كانت حاجتي لأناسٍ يحبّونني وأحبُّهم، إلى دفءٍ يملأ قلبي...

إنهم لا يتحدَّثون لي إلا عن الكمِّ الهائل من المشاغل التي تركوها لإيصال عطائهم إلي.

وتتابع حديثها بعد هدوء، وتستجمع قوَّتها: أعلم بأن الحياة أصبحت صعبة، وأن لكلِّ واحدٍ منهم حياته التي تملؤها المشكلات والهموم، لولا ذلك لرأيتهم هم وأولادهم يملؤون المكان صخبًا...

ما شاء الله، إن ابنتي الكبيرة مريم دائمة الانشغال مع زوجها في العمل، لديه متجرٌ ضخم، وحالته الماديَّة ممتازة، وهي تساعده فيه.

زوَّجتها مبكِّرًا، كانت في الثانية عشرة من عمرها، فقد تهافتت العائلات لخطبتها لشدَّة حسنها وجمالها، يقولون إنها أخذت الحسن من أمِّها ـــ وتبسَّمت ضاحكةً ـــ لا تنظري إلى وجهي الآن، لقد كان لي حسنٌ وبهاءٌ تكلَّم عنه أهل البلد سنين عدَّة.

وتكمل حديثها: أراد أبو النور أن يرتاح من عبئها... دائمًا كان يُسمعني بأن ذلك الجمال الزائد قد يكون نقمةً علينا، وعليه أن يضعها في كنف رجلٍ يزيح همَّها عن كاهله...

وكذلك فعل، زوَّجها قبل أن تبلغ ـــ وطأطأت أمُّ النور رأسها ـــ وأخذت لعبتها بيدها، لحياةٍ لا تعلم عنها أيَّ شيء، وكبرت هناك، وأنجبت...

لقد كبرت مع أبنائها، علَّمتهم جميعًا، فقد كانت تحبُّ المدرسة كثيرًا، وحزنت عندما أخرجها والدها منها ليزوِّجها.

أدخلَت البنات الجامعات قبل الشبَّان، وجعلت لكلِّ واحدةٍ منهنَّ شأنًا كبيرًا، ابنتها الكبيرة درست الهندسة، والصغيرة تخرَّجت بدار المعلِّمات، تقدَّم لخطبة بناتها أفضل العائلات، لكنها لم ترد تزويجهنَّ مبكِّرًا كما فعلنا بها...

لا أعرف لمَ أحسُّ بأنها تحمل في قلبها ضغينةً تجاهي وتجاه والدها؟! مع أننا زوجناها زواجًا حسدها عليه كلُّ بنات القرية، وكان زوجها معها حنونًا طيِّبًا كالأب، ولم يعص لها أمرًا طيلة زواجها منه، فقد كانت طفلته المدلَّلة.

نسيت أن أخبرك بأن لعبتها التي أخذتها معها يوم عرسها ما تزال لديها، لا أعرف ما الذي يجعلها تحتفظ بتلك اللعبة البالية حتى اليوم، رغم أن زوجها أحضر لها الكثير من الألعاب غالية الثمن!

إن كلَّ ما ترينه في هذه الغرفة من جلبها، فهي تغدق عليَّ بالعطاء، ولا تأتيني إلا وهي تحمل الأكياس الممتلئة.

وتحزن أمُّ النور وهي تقول: إنها تعتقد أنني بحاجةٍ إلى المال فقط! ألا ترى وضعي كيف أصبح؟! وأن صحَّتي متدهورة، وأنه لا يصحُّ أن يأتي الجيران لتلبية احتياجاتي الخاصة؟!

جزاهم الله كلَّ خيرٍ، وأوَّلهم أنت أمَّ فادي...

لكن الحاجة للناس صعبة، وحتى عندما لا أكون بحاجةٍ لشيء مادِّي، فإن روحي أيضًا بحاجةٍ إلى الناس من حولها، يذكِّرونها أنها ما زالت على قيد الحياة...

هي تعاملني ككلبٍ... ترمي لي المال والأشياء التي جلبتها وتذهب، وعندما أعاتبها وأقول لها: أنا أمُّك، وعليك أن تعامليني أفضل من ذلك، فتردُّ عليَّ قائلة: أبحاجةٍ أنت إلى المزيد من المال؟ فأستغرب قولها وأردف: وهل الحياة مالٌ فقط؟!

فتســـكتني وتقول: لم أشـــعر يومًا بأنكم أهلي... لولا عتب الله عليَّ لَما أتيت إليكم، أنســـيتم كيف رميتموني طفلةً صـــغيرةً في براثن الحياة؟! وتخرج من عندي متألِّمة.

بالله عليك ـ تقول أمُّ النور ـ بماذا أخطأت في حقِّها حتى تعاملني هذه المعاملة السيِّئة، ها!!؟!

أربِّت على كتفها: لا عليك يا أمَّ النور، لا بدَّ أن يأتي يومٌ تعرف واجبها تجاهك.

أمازحها قليلًا لأرفِّه عنها وأنســـيها علَّتها: "ها أمَّ النور، أيُّ العائلات أعرق في النسب، عائلتي أم عائلتك؟".

تبتســـم لي، وتقول: إن نســـبك له عراقةٌ كبيرةٌ في بلدنا، معروفٌ عنكم الطيب، والمعدِن الأصيل.

– هذا من لطفك أمَّ النور!

وتسلسل لي نصف عائلات البلد، ما شاء الله كنت أحسُدها على ذاك الفكر المتَّقد، والذاكرة الفولاذيَّة، جسدها بالٍ، لكن عقلها جهاز حاسوبٍ مبرمج ضدَّ النِّسيان.

وتدخلني مباشرةً لقصَّة ولدها نضال، الصغير المدلَّل:

كنت أودُّ أن أخطب له، لكن ظروفه كانت صعبةً، واضطُرَّ للسفر.

لقد هاجر مؤخَّرًا خارج البلاد، بعد أن أنهى دراسته الجامعيَّة.

هو الأكثر علمًا وثقافةً بين إخوته، كان محبًّا للعلوم والثقافة منذ نعومة أظفاره، لكن هذا الخبيث (مدلَّل أمِّه) كان له رفقة سوء...

اتَّجه وِجهة لم يكن أحدٌ من العائلة يلتفت إليها... ما لَنا وللسياسة؟! أيحقُّ لنا نحن الرعاعَ أن نتكلَّم بتلك المواضيع؟!

تتساءل أمُّ النور بصوتٍ ضعيفٍ؛ خوفًا من أن يصل صوتها خلف الجدران! ـ لم لا نترك الخبز للخباز؟

كان كلَّما عاد إلى البيت يحدِّثني عن خيرات هذا البلد الطيِّب، وثرواته الكثيرة، من نفط، وأرض طيِّبة، وفصولٍ جاذبة للسياحة، وعن كلِّ المقومات التي ترفع من شأنه اقتصاديًّا.

ويقول لي: لماذا أبناء بلدنا فقراء، يلهثون وراء لقمة العيش؟! وكنت دائمًا أسكته بأن أرمي عليه المنشفة التي أحملها، أو أيَّ شيءٍ خفيفٍ بين يدي، وأصرخ فيه: اسكت... وألتفت حولي، لا أعلم من أين تعلَّمت طول اللسان!

فيبتسم لي، ويضمُّني إلى صدره قائلًا: عنيفةٌ أنت يا أمَّ النور، تريدين أن تسكتيني عنوةً هاااا؟!

ونجلس لتناول الغداء، وهو يقلب المذياع على قناته المفضَّلة، لقد تعوَّدت عليها، كان والده رحمه الله دائم السماع لها. لا

نســـمع فيها أغنيةً أو برنامجًا، بل كانت تملأ المكان بضـــجيج الأخبار، أخبار الدنيا وحوادثها، وأقول له: يا ولدي ألا تريح هذا الرأس قليلًا من هذا الكلام الفارغ؟!

فيقطِّب حاجبيه، ويردُّ بلهجة المســـتهجن: كلامٌ فارغ؟! إنها حياتنا، مســـتقبلنا ومســـتقبل أطفالنا... الذين لن نرضـــى أن يعيشوا كما عشنا نحن، في فقر، وتبعيَّة، وكمٍّ للأفواه... ويريد أن يســتطرد في الحديث فأضــع لقمةً ســريعةً في فمه: ذق يا بنيَّ ما أطيبَ طعام أمِّك... فيعلم أنني أريد منه أن يســـكت عن هذا الحديث.

وكبرت مشـــكلات البلاد كما تعلمين، ولا أعلم لم خطرت له فكرة السفر خارج البلاد!

وقالت وهي تطأطئ رأسها: لا شكَّ بأنك تسمعين باسمه، وترينه بين الفينة والأخرى على التلفاز... إيه! لقد أصبح في عالمٍ آخر، بعيدٍ عن عالمي، وحياةٍ بعيدةٍ عن حياتي...

تلك الطريق التي اختارها لن يستطيع العودة منها... حتى لو أحبَّ ذلك.

صمتت أمُّ النور هنيهة... ولم تترك مجالًا كبيرًا لهذا الصمت أن يفرض سيطرته على المكان، فقد عاودت حديثها كفارسٍ يعود ليمتطي صهوة حصانه، وكنت على ثقةٍ أنها لو أنها تعلَّمت في مدارس رسميَّةٍ لأخذت شهادة المحاماة بامتياز؛ فقد كانت تدافع عن حقِّها في الحياة بجرأةٍ أمامي.

– كان عليه أن يعرف حقوق أمِّه في عيشٍ كريمٍ بعد أن عجزت عن المشي، ما شأننا بالآخرين؟! فليذهبوا إلى

الجحيم! ألم يفكِّر بي؟! من سيقضي حاجيَّاتي؟! وهو يعلم حال أسرتنا المشتَّت رغم كثرة الأبناء!

كم أنَّبني إخوته على إفراطي في دلاله، وإرغامهم على دفع مصاريف دراسته رغم عسر الحال... لقد خبَّأت له من مصروف البيت ليُتمَّ علمه... وترنُّ في أذني كلمات زوجة ابني مصطفى وهي تردح: إنك توفرين المال على حساب صحَّتك، لتعطيه لولدك المدلَّل الصغير.

ودمعتان ساخنتان تلهبان وجهها المضيء المليء بخطوط الزمن... تنظر إليَّ والبريقُ في عينيها:

هنيئًا لأمِّك بك أمَّ فادي... إنَّك حنون، رقيقة المشاعر...

قاطعتها باسمةً: طبعًا طبعًا أمَّ النور، أنا نبع الحنان... ههه...

وأغمرها بكلتا يدي: لم تقولي لي كيف أنت تلقَّبين أمَّ النور، وولدك الكبير اسمه مصطفى؟!

تردُّ بصوتها القوي:

لقبي أمُّ النور نسبة لابني الكبير نور، رحمه الله، عاش ستًّا من السنين، ومات إثر مرض أصابه، إنها عيون الناس عليه، لقد كان آيةً في الجمال، وكلَّما خرج للَّعب مع أقرانه يعود في المساء ووجهه أحمر اللون، والحرارة باديةٌ عليه...

ظلَّ كذلك حتى مرض في أحد الأيَّام مرضًا شديدًا، أودى بحياته... ذهب هو، وظلَّ اسمه ملاصقًا لي، أرأيت تلك الحياة ما أصعبها؟!

- **والله إنها صعبةٌ جدًّا يا أمَّ النور، والأصعب أن يأتي أبو فادي إلى البيت ولا يجدني، ولم أُنهِ عملي بعد، حينئذٍ سيكون له حديثٌ آخر!**

أقف لأستأذن منها للذهاب، فتعبس في وجهي: أرجو ألَّا تتأخَّري عليَّ... «أحبُّك يا أمَّ فادي»، تقولها بصوتٍ خجِل، وكأنها طفلٌ صغيرٌ يمسك بأمِّه، لا يريد منها الرحيل.

وتسير قدماي إلى البيت، وعقلي يرتِّب الأحداث التي حصلت لتلك الأم...

هل يعطى الأبناء الأعذار لتقصيرهم تجاه والديهم؟! مهما كانت ظروف حياتهم قاسية، أليس لأولئك الآباء الحقُّ بالعيش عيشةً كريمةً، بعد أن تعبوا كلَّ تلك السنين لتربيتنا وتأمين متطلباتنا؟!

كنا في السابق ندين المجتمعات الغربية لإنشاء دور المسنِّين، وننعتهم بأنهم عديمو الإحساس والرحمة... وأن مجتمعاتهم مشرذمة...

إننا اليوم نتطلَّع إلى مسـؤوليَّة مجتمعاتنا العربيَّة تجاه هذه الطبقة، وإنشـاء دورٍ لكبار السِّـنِّ يَلقون فيها الرعاية الصـحِّيَّة والاجتماعيَّة، بدل تركهم في مهبِّ الريح.

أنهيت عملي في ذاك اليوم، ولم يتسـنَّ لي العودة إلى أمِّ النور، وعلمت أن التأنيب بانتظاري في اليوم التالي!

وباكرًا ذهبت إليها، بفرحةٍ كبيرةٍ كان اللِّقاء: هلا... هلا أمَّ فادي، وجهك أم ضوء القمر؟!

أتناسى السؤال: وكيف حالك أنت يا أمَّ النور؟

تستغرب لسؤالي! وتجيب بسخرية: درت خمس دوراتٍ في الحي، ومارست رياضة المشي. قالتها ضاحكة!

ثم تتلوَّن نبرة صوتها بريشةٍ حزينة: كيف سيكون حالي في هذه الغرفة الكئيبة؟ لقد ملَّت مني، كلُّ حائطٍ فيها يقول لي: فارقيني... ابتعدي عني، سئمت رؤية وجهك...

- بســـيطةٌ يا أم النور... هكذا أراد الله لك، وأنت امرأةٌ مؤمنة، عليك ألَّا تتذمَّري لحكم الله.
- والنعم بالله... لولا إيماني بالله وحكمته لكنت فقدت عقلي منذ زمنٍ بعيد، لكني دائمًا أصبِّر نفسي.

ألفُّها بذراعي، وتربّت على ظهري، في مشــهدٍ يتكرَّر في لحظات حزنها الشديد.

وتقول بمحبَّة: أتدرين أمَّ فادي أنك تشبهين ابنتي مرام؟ تشبهينها في الشكل فقط، فأنت حنونٌ جدًّا، وتربيتك صالحة، أمَّا هي... آخ... آخ... لا أدري ما الذنب الذي اقترفته حتى جعل الله أولادي هكذا؟!

- لا تقولي هذا أمَّ النور.

تردُّ عليَّ باستغراب: أنت لا تعرفين مرام، وكم عانيت أنا وإخوتها بسببها، وبسبب مشكلاتها.

حتى الآن يؤرّقني أنني لا أعلم بأيِّ أرضٍ هي؟! أو إلى أين ذهبت؟!

كأن ذاك المستوعب الذي حملها ليس بطني!

والله أخجل أن أكلِّمك عنها...

تصـــمت قليلًا، وتعاود الحديث: كانت مثال الأخلاق والتربية، دلَّلها إخوتها كثيرًا؛ كونها آخر العنقود، وبخاصَّـةٍ أخوها نضـال، كانت أخته، وصـديقته، تذهب معه في جميع زياراته لأصـدقائه، وتحضـر اجتماعاتهم الدائمة، كان نضـالٌ فخورًا بها كثيرًا، ويقول لي: «إن أختي مرام ليســت كباقي إخوتي، إنها متعلِّمة، متفهِّمة، ومثقَّفة، تضيء كلَّ جلساتي، وتساهم في أيِّ موضوعٍ يُطرَح، إنها كأخيها»، وهو يشير إلى نفسه باعتزاز.

ظلَّت كذلك حتى تزوَّجت أحد أصدقاء نضال، وعاشت معه بضع سنين قليلة، أظنُّها عشَرةً من السنين، أو أكثر... لا أدري! العمر يمرُّ يا ابنتي، والإنسان ينسى...

أصابتني الدهشة لقولها... إن لهذه العجوز ذاكرةً فولاذيَّة، سطَّرت فيها تسعًا من العقود، لم تنس أيَّ حدثٍ حصل معها، صغيرًا كان أم كبيرًا... لكني لم أظهر لها دهشتي؛ حتى لا أحرجها.

تتململ العجوز وتقول: تحدَّثت مرام عن أمورٍ لم نعتد سماعها، أو طرحها من بناتنا، لقد تحدَّثت عن مرض زوجها، وعدم قدرته على الإنجاب، وشكَّكت في رجولته أيضًا، اللعينة! لا أدري من أين أتت بتلك الجرأة التي تحدَّثت فيها أمام إخوتها؟! عن حقوق المرأة في بيت زوجها و... وأنه لو كان الأمر معكوسًا لَما صبر هو عليها... ولرماها فورًا.

حينها لم يكن أخوها نضـالٌ موجودًا، بل كان خارج البلاد، فلم يسـتطع أن يعطيها القوَّة هذه المرَّة، وقف إخوتها في وجه رغبتها في الانفصـال، بل ووقفوا في وجه مقولاتها، وما ترمي به زوجها من كلامٍ مشين!

صـحيحٌ أنها لم تنجب، وهي المحبَّة للأطفال، لكن تلك حكمة الله، هل هي أكرم من ربِّ العالمين؟!

كانت كلَّما جاءت إلينا غاضـبةً من بيت زوجها تنهال عليها أصوات إخوتها بالذمِّ والشتم، ويعيدونها صاغرةً إليه، قائلين لها إن بيت زوجك هو مقبرتك... وكان موقفهم هذا يقوِّي شكيمة زوجها، فأصبح يضربها ضربًا مبرِّحًا يترك رسوماته على وجهها...

ظلَّ أمرها كذلك حتى بدأت سيرتها تخرج من بين جدراننا، وكلُّ ذلك بفضل ثرثرة نافلة (زوجة مصطفى)، عليها اللَّعنة! كانت تعيِّرنا دائمًا بتصرُّفات مرام، وأخذت تتكلَّم للناس عن سبب

مشـكلاتها مع زوجها، فانتشـر الخبر في القرية، وأنت تعلمين أن ألسنة أهل القرية لا ترحم أبدًا.

ووصـــل إلينا من الجيران الذين يســـكنون بجانب مرام أن زوجها يزداد وحشيَّة، وأنهم يسمعون أصوات استغاثاتها وهو يضربها...

كان عليه أن يربّيها... وتسـتطرد بالحديث: حماك الله يا نضـال، أنت من كبَّرت برأسها، حتى أصبحت كالفرس الجامح!

تغمرني العجوز بقوَّة، وتضـعف صـوتها كأن هناك من يسـمعها: البنات لا كاسر لهن! علينا ألَّا نُطمعهن.

- وأين هي مرام الآن يا أمَّ النور؟!
- منذ فترةٍ ليست بالقليلة ـ ربَّما خمس أو ستُّ سنواتٍ ـ باع زوجها بيته، ورحل هو وابنتي من القرية، ولم نعد نسمع أيَّ خبرٍ عن ابنتنا.
- ألم تسألوا عنها يا خالة؟

– آه يا ابنتي، ومن ذا الذي سيسأل عنها؟! كلٌّ لديه بيته وعمله، وواجباته الخاصَّة، كان الله بالعون!

إذا كنت أنا أمَّهم قد نســـوني، وأعرف أنهم يتمنَّون الموت لي؛ ليرتاحوا من العبء الذي يحملونه... لكن ما عساي أفعل؟ تلك مشيئة الله، أن ترميني تلك السنون لقمةً سائغةً بين براثن المرض والســقم، ولولا إيماني بالله لتخلَّصــت من هذه الحياة التي لم تعد تحمل لي سوى الألمِ والقهر...

أتعرفين يا أمَّ فادي بأن لكلِّ واحدٍ منهم دورًا يقضـــيه في بيته؟! لكنه يقوم بقضـــاء حاجيَّاتي أثناء هذا الدور، وفي أثناء دوره لا أرى بقيَّة إخوته، حتى يأتي دورهم!

أحيانًا تمضي خمسة أو ستَّة أشهرٍ لأرى الواحد منهم!

– وأحفادك أمَّ النور، ألا يأتون لزيارتك؟

أحفادي؟! ههه... ماذا أقول لك عن أحفادي؟! هل ستكون قلوبهم أكثر شفقةً من آبائهم الذين حملتهم تسعة أشهر، وربَّيتهم حتى أصبحوا كبارًا؟!

- لا عليك أمَّ النور، إن الله لا يضيع تعب الأمِّ وسهرها، ألست تقولين إنني مثل ابنتك؟! أم هو قولٌ فقط؟!
- كلَّا... إن ما تفعلينه لأجلي أمَّ فادي يفوق دور الولد البارِّ تجاه أهله، رضي الله عنك، وأسعدك في الدنيا والآخرة...
- أكون سعيدةً يا أمَّ النور حين أراك مرتاحة، ولا ينغِّص عليك غيابهم، فلكلِّ واحدٍ منهم عائلةٌ هو مسؤولٌ عنها، ولكلٍّ منهم عذره، ويبقى قلب الأمِّ أكبر...
- نعم غاليتي، صدقت، فرغم كلِّ سني العذاب والجفاء، فإن قلبي يحمل لهم الحبَّ الكبير، ذاك القلب سكنوه قبل أن ألدهم...

وكلَّما جلســـت وحيدةً، أســـترجع ذكرياتي الجميلة معهم، حين أرضـــعتهم... حين ألمي ودمعي لحظة الفطام... حين حبَوا... وحين مشَوا... وحين كبروا...

وتبتسم كطفلٍ وديع، ابتسامةً لم أرها على محيَّاها من قبل!

وسكتت على غير عادتها، ولم تعد تنبس ببنت شفة!

– ها... وماذا بعد يا أمَّ النور؟

لكنها أبت أن تردَّ علي! وأبت بســـمتها أن تفارق وجهها الشاحب...

هززتها بيدي، لم تسمع، ولم تجب!

رحمك الله يا أمَّ النور!

النهاية

عن دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني. من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي مـن إنجـاز دار بسـمة للنشـر الإلكـتروني

ورعـايـة جـروب مـلـتـقـى الأقـلام المُـبـدعـة..

للاطلاع على الصـفحة الرسـمة لداربسـمة للنشـر الإلكتروني على الفيسـبوك، يرجى مسح الكود التالي، أو الضغط على الرابط أسفله:

https://www.facebook.com/DarBasma99

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيسبوك، يرجى مسح الكود التالي، أو الضغط على الرابط أسفله:

https://www.facebook.com/groups/1061896247610890/?ref=share

أم النور

عبير عيسى الماغوط
كاتبة من مدينة سلمية-سوريا ، لها بصمتها الخاصة في التعبير، ونبضها الخاص.
تخرج مكنوناتها على الورق ليستقي الآخرون من ينابيع الأدب والشعر والتجربة البديعة.
تحتفظ بكنوز أحاسيسها في صدرها ، وكلما ضاق أفرغت ما به على الورق وأعطت للكون شيئا من الإبداع الكامن.

+212771814934
basma24design@gmail.com
دار بسمة للنشر الإلكتروني
دار البسمة للنشر الإلكتروني